نفحات من عبق السيرة النبوية

الدرس الرابع عشر

عناصر المحاضرة:

❶ الهجرة إلى المدينة.

❷ وصول النبي ﷺ إلى المدينة.

❸ هجرة أهل البيت.

❹ المسجد النبوي.

❺الآذان.

❻ المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وصلى الله على قدوتنا وأسوتنا سيدنا محمد أفضل خلق الله أجمعين، ورسول رب العالمين، فبشّر وأنذر، ووعد وأوعد، وأخرج الله به البشرية التائهة الهالكة من الظلمات إلى النور، وهدى الناس إلى صراط مستقيم.

فضائلُه كمثلِ النهرِ *** مثلِ البحرِ إذا زخرا

له في الفضلَ غايتُه *** وفي النهر ذروتهُ

ولو قرءوا شمائلَه *** لظلوا دهرهم حيرى

ولو نظروا لطلعته***لظنوا الشمسَ والقمرا

ولو ظفروا ببسمته لطارت *** من كوامنها قلوبٌ تعشق الفجرا

ولو نعموا بمجلسه *** أو اجتازوا بمسجده

فأسمعهم حديثًا من *** صنوف العلم أو ذكرا

لغنت من بلاغته مسامعهم***وحارت من عجائبه مداركهم

وسافرت القلوب له كما*** لو عولجت سحرا ﷺ

وما أحوجنا في واقعنا المعاصر لتتبع سيرة النبي -صلى الله عليه وسلم-، والوقوف على دروسها وعبرها!

الهجرة إلى المدينة:

توقفنا -بفضل الله ورحمته- في رحلة نفحات من عبق السيرة النبوية المباركة عند خروج النبي -صلى الله عليه وسلم- وصاحبه الصديق -رضي الله عنه- للهجرة للمدينة، تلك الهجرة المباركة التي جعلها الله سببًا في تغيير وجه البشرية كاملةً، وتحدثنا عن أحداث مُكْثِهما في الغار ثلاثة أيام، والتي نشطت فيها قريشٌ في ملاحقة النبي ﷺ لعلمها أن وصوله ﷺ للمدينة يعني خروج أَزِمَّةِ الأمور من يديها للأبد.

⇦قَالَ النبي -صلى الله عليه وسلم-: "أَلَمْ يَأْنِ الرَّحِيلِ؟"، فقال الصديق: بَلَى، فَارْتَحَلْنَا بَعْدَمَا زَالَتِ الشَّمْسُ، وَاتَّبَعَنَا سُرَاقَةُ بن مالك، وَنَحْنُ فِي جَلَدٍ مِنَ الْأَرْضِ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أُتِينَا! فَقَالَ: "لَا تَحْزَنْ؛ إِنَّ اللهَ مَعَنَا" متفق عليه.

وكما ذكرنا كَانَ سُرَاقَةُ بن مالك أَوَّلَ النَّهَارِ جَاهِدًا عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ آخِرَ النَّهَارِ حارساً له.

فيا سبحان مالك الملك! (فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) [البقرة:137]، فمهما أصابك، مهما ابتليت، مهما تألمت، لكنه -سبحانه- أبدًا لن يتخلى عنك، قد يبتليك ليمتحن إيمانك، قد يصيبك ليرفع درجتك، (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) [هود:7]، لكنه قريب منك، في اللحظة الحاسمة يُنجيك، "احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ"، بل قد يرزقك ويُعوضك، فهو ملك كريم، لطيف رحيم.

فمضى ﷺ "وأبوبكر، وَانْطَلَقَ مَعَهُمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ، وَالدَّلِيلُ، فَأَخَذَ بِهِمْ طَرِيقَ السَّوَاحِلِ" رواه البخاري.

⇦خَرَجَ بِهِمَا دَلِيلُهُمَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُرْقَطَ، سَلَكَ بِهِمَا أَسْفَلَ مَكَّةَ، ثُمَّ مَضَى بِهِمَا عَلَى السَّاحِلِ، حَتَّى عَارَضَ الطَّرِيقَ أَسْفَلَ مِنْ عُسْفَانَ [سمي كذلك لتعسف السير فيه وشدة صعوبته]، ثم جعل يتخير طرقًا مليئة بالحجارة غير مألوفة للسير، ثُمَّ أَخَذَ بِهِمَا عَلَى الْجَدَاجِدِ [طريق شديد الصلابة]، ثم هبط بهما العرج [سمي بذلك لكثرة تعرجاته].

وقيل: "لَقِيَ النبيُّ ﷺ والصديقُ -رضي الله عنه- الزُّبَيْرَ فِي رَكْبٍ مِنَ المُسْلِمِينَ كَانُوا تِجَارًا قَافِلِينَ مِنَ الشَّأْمِ، فَكَسَا الزُّبَيْرُ رَسُولَ اللَّهِ وَأَبَا بَكْرٍ ثِيَابَ بَيَاضٍ" رواه البخاري معلقًا.

⇦فيا سبحان الله! حفظهما من قريش ومن سراقة، وسخر لهما في الطريق الدليل والمركوب، وهاهو الملبوس بين أيديهما وهما في وسط الصحراء والهواء! فيا سبحان الرزاق ذي القوة المتين! سبحان من يتعاهد أولياءه السالكين في طريق مرضاته، فأرسل إليهم من يكسوهم، ومن يُطعمهم ويَسقيهم.

وعن أبي بكر الصديق قال: ارْتَحَلْنَا مِنْ مَكَّةَ، فَأَحْيَيْنَا، أَوْ سَرَيْنَا لَيْلَتَنَا وَيَوْمَنَا حَتَّى أَظْهَرْنَا وَقَامَ قَائِمُ الظَّهِيرَةِ، فَرَمَيْتُ بِبَصَرِي هَلْ أَرَى مِنْ ظِلٍّ فَآوِيَ إِلَيْهِ، فَإِذَا صَخْرَةٌ أَتَيْتُهَا فَنَظَرْتُ بَقِيَّةَ ظِلٍّ لَهَا فَسَوَّيْتُهُ، ثُمَّ فَرَشْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِيهِ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُ: اضْطَجِعْ يَا نَبِيَّ الله، فَاضْطَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ انْطَلَقْتُ أَنْظُرُ مَا حَوْلِي هَلْ أَرَى مِنَ الطَّلَبِ أَحَدًا، فَإِذَا أَنَا بِرَاعِي غَنَمٍ مُقْبِلٍ بِغَنَمِهِ إِلَى الصَّخْرَةِ، يُرِيدُ مِنْهَا الَّذِي أَرَدْنَا، فَلَقِيتُهُ فَقُلْتُ: لِمَنْ أَنْتَ يَا غُلَامُ؟ فَقَالَ: لِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، قُلْتُ: أَفِي غَنَمِكَ لَبَنٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، قُلْتُ: أَفَتَحْلُبُ لِي؟ قَالَ: نَعَمْ، فَأَخَذَ شَاةً، فَقُلْتُ لَهُ: انْفُضِ الضَّرْعَ مِنَ الشَّعَرِ وَالتُّرَابِ وَالْقَذَى، فَحَلَبَ لِي، فِي قَعْبٍ مَعَهُ، كُثْبَةً مِنْ لَبَنٍ، قَالَ: وَمَعِي إِدَاوَةٌ أَرْتَوِي فِيهَا لِلنَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم-، لِيَشْرَبَ مِنْهَا وَيَتَوَضَّأَ. متفق عليه.

قال الصديق - رضي الله عنه -: "فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم-، وَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُ مِنْ نَوْمِهِ، فَوَافَقْتُهُ اسْتَيْقَظَ"، "فَصَبَبْتُ عَلَى اللَّبَنِ مِنَ الْمَاءِ حَتَّى بَرَدَ أَسْفَلُهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! اشْرَبْ مِنْ هَذَا اللَّبَنِ، قَالَ: فَشَرِبَ حَتَّى رَضِيتُ، ثُمَّ قُلْتُ: قَدْ آنَ الرَّحِيلُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «بَلَى»، فَارْتَحَلْنَا وَالقَوْمُ يَطْلُبُونَنَا. " متفق عليه.

⇦فلم يشرب الصديق -رضي الله عنه- حتى ارتوي النبيُّ ﷺ ارتواءً تامًا!

📝وبعد هذا مضى الصاحبان لمواصلة المسير في طريق الهجرة؛ وكان الناس بالمدينة قد سمعوا بخروج النبي ﷺ، فكانوا يترقبون وصوله كل يوم بشغف ولهف، وحُق لهم، فهم يترقبون وصول أعظم الخلق وأكرم الناس، يا لغبطتهم ويا لفرحهم! فستكتحل عيونهم برؤية الحبيب المصطفى ﷺ

معاني الحبّ قد سُكِبتْ ... لخير الخلق قد سُبِكَتْ

قلائدَ من وفاءٍ للذي أهدى لنا الخيرا

📝إنه مهجة القلوب، وإنه حبيب المسلمين، إنه قرة العيون، وآهٍ للقياه! وآهٍ لنظرة تُطفئ لهيب الشوق لرؤياه!

تعالى الله من أحذاك فضلا *** فكنت المصطفى يا خير هادِ

أحبك يا رسول الله حباً *** تغلغل في الجوانح والفؤاد

أحبك صادقا حتى كأني *** فريدٌ في المشاعر والوداد

✉وفي يوم الاثنين 8 ربيع الأول سنة 14 من النبوة - وهي السنة الأولى من الهجرة، نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بقباء.

📝لقد كان أهل المدينة يخرجون لأطراف المدينة يتلهفون لرؤيته، فكانوا يقولون: كُنَّا نَخْرُجُ إِذَا صَلَّيْنَا الصُّبْحَ، إِلَى ظَاهِرِ حَرَّتِنَا نَنْتَظِرُ رَسُول الله ﷺ، فو اللَّهِ مَا نَبْرَحُ حَتَّى تَغْلِبَنَا الشَّمْسُ عَلَى الظِّلَالِ فَإِذَا لَمْ نَجِدْ ظِلًّا دَخَلْنَا، وَذَلِكَ فِي أَيَّامٍ حَارَّةٍ. رواه البخاري معلقا.

⇦حَتَّى إِذَا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي قَدِمَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-، جَلَسْنَا كَمَا كُنَّا نَجْلِسُ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ ظِلٌّ دَخَلْنَا بُيُوتَنَا، وَقَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- حَيْنَ دَخَلْنَا الْبُيُوتَ، فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ رَآهُ رَجُلٌ مِنْ الْيَهُودِ، وَقَدْ رَأَى مَا كُنَّا نَصْنَعُ، وَأَنَّا نَنْتَظِرُ قُدُومَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَيْنَا، فَصَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا بَنِي قَيْلَةَ [قيلة: الجدة الكبرى للأنصار]، هَذَا جَدُّكُمْ قَدْ جَاءَ [حظكم وصاحب دولتكم]، قَالَ: فَخَرَجْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَهُوَ فِي ظِلِّ نَخْلَةٍ، وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ -رضي الله عنه- فِي مِثْلِ سِنِّهِ، وَأَكْثَرُنَا لَمْ يَكُنْ رَأَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ ذَلِكَ، وَرَكِبَهُ النَّاسُ وَمَا يَعْرِفُونَهُ مِنْ أَبِي بَكْرٍ، حَتَّى زَالَ الظِّلُّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ فَأَظَلَّهُ بِرِدَائِهِ، فَعَرَفْنَاهُ عِنْدَ ذَلِكَ. رواه البخاري معلقا وابن هشام.

📜قال ابن القيم: وسُمِعت الوَجْبَةُ والتكبير في بني عمرو بن عوف، وكبر المسلمون فرحًا بقدومه، وخرجوا للقائه، فتلقوه وحيوه بتحية النبوة، فأحدقوا به مطيفين حوله، والسكينة تغشاه، والوحي ينزل عليه: (فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ) [التحريم: 4].

✉ ونزل رسول الله ﷺ بقباء على كلثوم بن الهدم، وقيل: بل على سعد بن خَيْثَمَة، والأول أثبت، ومكث علي بن أبي طالب رضي الله عنه بمكة ثلاثًا، حتى أدى عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس، ثم هاجر ماشيًا على قدميه حتى لحقهما بقباء، ونزل على كلثوم بن الهَدْم.

بعد رحلةٍ دامت أكثر من ثلاثة عشر يومًا، بينما لا تستغرق مع المسافر العادي آنذاك أكثر من ثلاثة أيام، وأسس ﷺ المسجد الذي أسس على التقوى، وصلى فيه. رواه البخاري معلقا وابن هشام.

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بقباء أربعة أيام: الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وأسس مسجد قباء وصلى فيه، وهو أول مسجد أُسس على التقوى بعد النبوة،قال ﷺ (من تطَهَّرَ في بيتِهِ، ثمَّ أتى مسجدَ قباءٍ، فصلَّى فيهِ صلاةً ، كانَ لَهُ كأجرِ عمرةٍ)، فلما كان اليوم الخامس ،خرج رسول الله ﷺ من قباء يوم الجمعة حين ارتفع النهار ركب بأمر الله له، وأبو بكر ردفه، وأرسل إلى بني النجار ـ أخواله ـ فجاءوا متقلدين سيوفهم، فسار نحو المدينة وهم حوله، فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف، وهو في طريقه إلى داخل المدينة، فجمع بهم بالمسجد الذي في بطن الوادي، وكانوا مائة رجل،وكانت أول جمعة أقيمت داخل المدينة، ويسمى مسجدها الآن مسجد الجمعة.

يقول أنس: "فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- جَانِبَ الحَرَّةِ، ثُمَّ بَعَثَ إِلَى الأَنْصَارِ فَجَاءُوا إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- وَأَبِي بَكْرٍ فَسَلَّمُوا عَلَيْهِمَا، وَقَالُوا: ارْكَبَا آمِنَيْنِ مُطَاعَيْنِ، فَرَكِبَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ، وَحَفُّوا دُونَهُمَا بِالسِّلاَحِ، فَقِيلَ فِي المَدِينَةِ: جَاءَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ ، جَاءَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ ، فَأَشْرَفُوا يَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: جَاءَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ ،جَاءَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ ، فَأَقْبَلَ يَسِيرُ حَتَّى نَزَلَ جَانِبَ دَارِ أَبِي أَيُّوبَ" رواه البخاري.

فبعد تلك المرحلة المكية بما فيها من أذى وسخرية وتضييق عليه ﷺ وظلم واضطهاد وتعذيب وقتل وتشريد للمسلمين، والتي استمرت ثلاثة عشر عامًا، لتبدأ بعدها المرحلة المدنية مرحلة العز والتمكين وبناء الدولة والتي دامت عشر سنوات تقريبًا، ثلاث وعشرون عاما هو عمر مراحل الرسالة والدعوة.

كما جاء في الحديث عَنِ ابْنِ عَبَّاس؛ قَالَ: "بُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَرْبَعِينَ سَنَةً، فَمَكُثَ بِمَكَّةَ ثَلاَثَ عَشْرَةَ سَنَةً يُوحَى إِلَيْهِ، ثُمَّ أُمِرَ بِالهِجْرَةِ فَهَاجَرَ عَشْرَ سِنِينَ، وَمَاتَ وَهُوَ ابْنُ ثَلاَثٍ وَسِتِّينَ" (رواه البخاري، ومسلم).

وصول النبي ﷺ إلى المدينة:

ثم اتجه إلى المدينة، وقد زحفت للاستقبال، وكان يومًا مشهودًا أغر، فقد ارتجت البيوت والسكك بأصوات الحمد والتسبيح، وتغنت بنات الأنصار بغاية الفرح والسرور، واستقبله ﷺ أهل المدينة استقبالاً حاراً، وصاح النساء والخدم والغلمان: جاء رسول الله ﷺ، جاء محمد، الله أكبر، جاء محمد، وأنشدوا فرحاً بقدومه ﷺ: طلع البدر علينا، من ثنيات الوداع، وجب الشكر علينا، ما دعا لله داع، أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع.

سبحان الله! وصل الحبيب ﷺ إلى المدينة بر الأمان، وصلها بعد عناء ومجاهدة ومشقة، تكبد النبي ﷺ في الهجرة مشقة المطاردة ثلاثة عشر يومًا بلياليها بين الصخور والمغارات ووعورة الجبال، وهنا السؤال: ألم يكن بالإمكان أن يحمله ربه على البراق كما في رحلة الإسراء والمعراج وفي طرفة عين؟ لماذا لم يُنج الله نبيه من كل هذا العناء الرهيب، خاصةً وأنه قد تعرض ﷺ في الهجرة لمخاطرَ عظيمةٍ؟ لقد أراد الله أن يجعل نبيه ﷺ قدوة للعالمين، ففي الهجرة دروس وعبر لا حدود لها، دروس في الثقة والتوكل على الله، وفي بذل المستطاع وفعل الأسباب، وفي الصبر والمجاهدة في سبيل الله.

بدأ العهد المدني بتصارع القبائل وتنافسها على شرف استضافة النبي ﷺ،والأنصار وإن لم يكونوا أصحاب ثروات طائلة؛ إلا أن كل واحد منهم كان يتمنى أن ينزل الرسول ﷺ ، فكان لا يمر بدار من دور الأنصار إلا أخذوا خطام راحلته: هلم إلى الْعَدَدِ وَالْعِدَّةِ والسلاح وَالْمَنَعَةِ، فكان يقول

لهم: «خَلُّوا سَبِيلَهَا، فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ»، فلم تزل سائرة به حتى وصلت إلى موضع المسجد النبوى اليوم فبركت، ولم ينزل عنها حتى نهضت وسارت قليلًا، ثم التفتت ورجعت فبركت في موضعها الأول، فنزل عنها، وذلك في بني النجار ـ أخواله ﷺ ـ وكان من توفيق الله لها، فإنه أحب أن ينزل على أخواله، يكرمهم بذلك، فجعل الناس يكلمون رسول الله ﷺ في النزول عليهم، وبادر أبو أيوب الأنصارى إلى رحله، فأدخله بيته، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «المرء مع رحله»، وجاء أسعد بن زرارة، فأخذ بزمام راحلته، فكانت عنده.

حَتَّى إِذَا أَتَتْ دَارَ بَنِي مَالِكِ بْنِ النَّجَّارِ، بَرَكَتْ عَلَى بَابِ مَسْجِدِهِ ﷺ، وَهُوَ يَوْمئِذٍ مِرْبَدٌ [الموضع الذي يجفف فيه التمر] لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ، وَهُمَا فِي حِجْرِ مُعَاذِ بْنِ عَفْرَاءَ، سَهْلٍ وَسُهَيْلٍ ابْنَيْ عَمْرٍو.

فَقَالَ رَسُولُ اللهﷺ حِينَ بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ: «هَذَا إِنْ شَاءَ اللهُ المَنْزِلُ» ثُمَّ دَعَا رَسُولُ الله ﷺ الغُلاَمَيْنِ فَسَاوَمَهُمَا بِالمِرْبَدِ، لِيَتَّخِذَهُ مَسْجِدًا، فَقَالاَ: لاَ، بَلْ نَهَبُهُ لَكَ يَا رَسُولَ الله، فَأَبَى رَسُولُ الله أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُمَا هِبَةً حَتَّى ابْتَاعَهُ مِنْهُمَا، ثُمَّ بَنَاهُ مَسْجِدًا...» رواه بخاري

⇦فيا سبحان الله! إنه المكان الذي اصطفاه الله -سبحانه وتعالى- لمسجد نبيه ﷺ في المدينة، ليكون محل ومرتكز لإقامة الأمة المحمدية، دعوها فإنها مأمورة، أمرها العليم الخبير، يقول أنس رضي الله عنه: "فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: "أَيُّ بُيُوتِ أَهْلِنَا أَقْرَبُ؟" فَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ: أَنَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ! هَذِهِ دَارِي وَهَذَا بَابِي، قَالَ: "فَانْطَلِقْ فَهَيِّئْ لَنَا مَقِيلًا"، قَالَ أبو أيوب: قُومَا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ. (رواه البخاري: 3911). أن الأهل هنا هم الأنصار والأعوان.

قال شيخُ الإسلامِ: "آلُ محمدٍ هم الأتقياءُ من أمته .... وأيُّ أهلٍ أحبُّ للرجلِ من أنصاره، وأعوانه، فكم من أخٍ لك لم تلده أمك! وهو الأخ الذي يسندك إن تمايلت، ويقومك إن اعوججت، ويكفيك إن احتجت، وهذا أقربُ للعاقلِ من ملءِ الأرض إخوةً من الرحم والصلب لكنهم لا يغنون عن أخيهم شيئًا". (مجموع الفتاوى: 22/ 461).

هذه قصة أولَّ منزلٍ للنبيّ ﷺ بالمدينة.

فما أولُّ موعظةٍ له -صلى الله عليه وسلم- بالمدينة؟ هذا ما يرويه لنا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ -رضي الله عنه-؛ قَائلًا: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ المَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ [تركوا كل ما في أيديهم وتسابقوا إليه]، وَقِيلَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لِأَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا اسْتَبَنْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ، وَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ! أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِسَلَامٍ". (رواه الترمذي 2485، وابن ماجه 1334، وصححه الألباني).

وبهذه الموعظة المختصرة البليغة افتتح النبيُّ ﷺ العهد الجديد من الدعوة، بإفشاء السلام بعد عهد الظلم والاضطهاد، أفشوا السلام فقد ولى عصر الاستبداد والاستعباد، "السلام عليكم" ليست مجرد كلمات، بل عهد ووعد بالسلام بينكم فقد انقضى عهد السادة والعبيد، وانقشعت الجاهلية بغيومها وعصبياتها، وأشرقت شمس السلام بين الناس بالعهد المدني الجديد عهد الدولة المسلمة بدأه ﷺ بالدعوة إلى السلام، ليس السلام العالمي المزيف للعالم اليوم بل السلام الذي هو منهج شامل لكل جارحة للإنسان.

❍فلن تكون مسلمًا بحق حتى يسلم المسلمون من يدك فلا تبطش بهم، ويسلموا من رِجلك فلا تسعى بها لتؤذيهم، ويسلموا من لسانك فلا تنطق بما يضرهم، ويسلموا من عينك فلا تتجسس على عوراتهم، ويسلموا من قلبك فلا تظنن بأحدهم سوءًا، ما أروع هذا السلام وأحلاه، هنا يكون للسلام عليكم أثر ومعنى في حياة المسلمين.

❍ثم كانت الموعظة الثانية: دعوة إلى العدالة الاجتماعية بإطعام الطعام، حجر الأساس للمجتمع المسلم المتحاب بل ركنها الركين، فإطعام الطعام حجر المواساة يوم يشارك المسلم إخوانه في طعامه وماله، فكيف ينام المسلم الصادق شبعان وهو يعلم مسلمًا جارًا له يتضاوى من الجوع، إنها حقيقة الإسلام لا صورته!

❍ثم أردف النبي -صلى الله عليه وسلم- هاتين الموعظتين العظيمتين بموعظة ثالثة، "وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ"، دعوة إلى حيث الصفاء وتربية النفس والاتصال برب الأرض والسماء لحظات التنزل الإلهي للسماء الدنيا؛ ليستجيب لحاجات ودعوات وأسئلة المخلوقين، قيام الليل وسيلة الاتصال بين الخالق والمخلوق، وعبودية بين العابد والمعبود، فبدأ النبي ﷺ بعبادات تنفع الناس من إفشاء سلام وإطعام طعام، بينما عبودية قيام الليل مدرسة عظيمة تنفع صاحبها، ومنبع رزق وخيرات تعود على فاعلها.

🗁ثم وضح وبيَّن ﷺ أن هذه هي العبادات الثلاث هي طريق الجنة، التي هي منتهى آمال المؤمنين، رزقنا الله وإياكم الجنة برحمته الواسعة. ما أيسرها من موعظة! وما أعظم نفعها وأثرها على المجتمع والعبد.

✉ولذا كان أول من آمن به من أهل المدينة بعد قدومه ﷺ إليها؟ اليهودي: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلاَمٍ، فما ملك بعد أن سمع هذه الموعظة المختصرة البليغة إلا أن يُعلن قائلًا: "...أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَّكَ جِئْتَ بِحَقٍّ، وَقَدْ عَلِمَتْ يَهُودُ أَنِّي سَيِّدُهُمْ وَابْنُ سَيِّدِهِمْ، وَأَعْلَمُهُمْ وَابْنُ أَعْلَمِهِمْ، فَادْعُهُمْ فَاسْأَلْهُمْ عَنِّي قَبْلَ أَنْ يَعْلَمُوا أَنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ، فَإِنَّهُمْ إِنْ يَعْلَمُوا أَنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ قَالُوا فِيَّ مَا لَيْسَ فِيَّ. فَأَرْسَلَ نَبِيُّ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فَأَقْبَلُوا فَدَخَلُوا عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: "يَا مَعْشَرَ اليَهُودِ! وَيْلَكُمْ، اتَّقُوا اللَّهَ، فَوَاللَّهِ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ، إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا، وَأَنِّي جِئْتُكُمْ بِحَقٍّ، فَأَسْلِمُوا". قَالُوا: مَا نَعْلَمُهُ. فَكَرَّرَهَا عَلَيهِم النَّبيُّ -صلى الله عليه وسلم- ثَلاَثَ مِرَارٍ، وأجابوه بالإجابة نفسها. قَالَ -صلى الله عليه وسلم-: "فَأَيُّ رَجُلٍ فِيكُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلاَمٍ؟". قَالُوا: ذَاكَ سَيِّدُنَا وَابْنُ سَيِّدِنَا، وَأَعْلَمُنَا وَابْنُ أَعْلَمِنَا. قَالَ -صلى الله عليه وسلم-: "أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ؟"، قَالُوا: حَاشَا لِلَّهِ مَا كَانَ لِيُسْلِمَ. قَالَ-صلى الله عليه وسلم-: "أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ؟". قَالُوا: حَاشَا لِلَّهِ مَا كَانَ لِيُسْلِمَ. قَالَ: "أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ؟". قَالُوا: حَاشَا لِلَّهِ مَا كَانَ لِيُسْلِمَ. قَالَ -صلى الله عليه وسلم-: "يَا ابْنَ سَلاَمٍ! اخْرُجْ عَلَيْهِمْ". فَخَرَجَ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ اليَهُودِ! اتَّقُوا اللَّهَ، فَوَاللَّهِ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ، إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَّهُ جَاءَ بِحَقٍّ. فَقَالُوا: كَذَبْتَ، فَأَخْرَجَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-. (رواه البخاري: 3911).

🗐هجرة أهل البيت:

وبعد أيام وصلت إليه زوجته سَوْدَة، وبنتاه فاطمة وأم كلثوم، وأسامة بن زيد، وأم أيمن، وخرج معهم عبد الله بن أبي بكر بعيال أبي بكر، ومنهم عائشة، وبقيت زينب عند أبي العاص، لم يمكنها من الخروج حتى هاجرت بعد بدر.

📝قالت عائشة: وقدمنا المدينة وهي أوبأ أرض الله، فكان بُطْحَان يجري نَجْلًا، أي: ماءً آجِنًا. وقالت: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، وعك أبو بكر وبلال، فدخلت عليهما فقلت: يا أبه كيف تجدك؟ ويا بلال كيف تجدك؟ قالت:

❁فكان أبو بكر إذا أخذته الحُمَّى يقول:

كل امرئ مُصَبَّحٌ في أهله *** والموت أدنى من شِرَاك نَعْلِه

❁وكان بلال إذا أقلع عنه يرفع عقيرته ويقول:

ألا ليت شِعْرِى هل أبيتَنَّ ليلة *** بـوَادٍ وحـولى إذْخِرٌ وجَلِيلُ

وهل أردْن يومـًا ميـاه مِجَنَّة *** وهلْ يَبْدُوَنْ لي شَامَةٌ وطَفِيلُ

قالت عائشة: فجئت رسول الله ﷺ، فأخبرته، فقال: «اللَّهُمَّ الْعَنْ شَيبةَ بنَ رَبِيعَةَ، وعُتْبَةَ بنَ رَبِيعَةَ، وأُمَيَّةَ بنَ خَلَفٍ كما أَخْرَجُونَا مِن أرْضِنَا إلى أرْضِ الوَبَاءِ، ثُمَّ قالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: اللَّهُمَّ حَبِّبْ إلَيْنَا المَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أوْ أشَدَّ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا في صَاعِنَا وفي مُدِّنَا، وصَحِّحْهَا لَنَا، وانْقُلْ حُمَّاهَا إلى الجُحْفَةِ» رواه بخاري

📝وقد استجاب الله دعاءه صلى الله عليه وسلم، فأري في المنام أن امرأة سوداء ثائرة الرأس، خرجت من المدينة حتى نزلت بالمَهْيَعَة، وهي الجحفة. وكان ذلك عبارة عن نقل وباء المدينة إلى الجحفة، وبذلك استراح المهاجرون عما كانوا يعانونه من شدة مناخ المدينة.

📜قامت الدولة الإسلامية بعد الهجرة إلى المدينة على ثلاثة أسس:

❶بناء المسجد النبوي.

❷والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.

❸ ووثيقة المعاهدة بين سكان المدينة.

📄المسجد النبوي:

وأول خطوة خطاها رسول الله ﷺ بعد ذلك هو بناء المسجد النبوي، واختار له المكان الذي بركت فيه ناقته ﷺ، فاشتراه من غلامين يتيمين كانا يملكانه، وأسهم في بنائه بنفسه، وَطَفِقَ رَسُولُ اللهﷺ يَنْقُلُ مَعَهُمُ اللَّبِنَ فِي بُنْيَانِهِ وَيَقُولُ، وَهُوَ يَنْقُلُ اللَّبِنَ: «هَذَا الحِمَالُ لاَ حِمَالَ خَيْبَرْ، هَذَا أَبَرُّ رَبَّنَا وَأَطْهَرْ» وَيَقُولُ: «اللهمَّ إنَّ الأَجْرَ أَجْرُ الآخِرة، فَارْحَمِ الأَنْصَارَ وَالمُهَاجِرَة» أخرجه البخاري.

قال أنس -رضي الله عنه-: "وَجَعَلُوا يَنْقُلُونَ الصَّخْرَ، وَهُمْ يَرْتَجِزُونَ وَالنَّبِيُّ ﷺ مَعَهُمْ، وَهُوَ يَقُولُ: "اللَّهُمَّ لاَ خَيْرَ إِلَّا خَيْرُ الآخِرَهْ فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالمُهَاجِرَهْ". رواه البخاري

✉ويحكي أنس قصة بناء المسجد، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: (فَكَانَ فِيهِ مَا أَقُولُ لَكُمْ قُبُورُ المُشْرِكِينَ، وَفِيهِ خَرِبٌ وَفِيهِ نَخْلٌ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِقُبُورِ المُشْرِكِينَ فَنُبِشَتْ، ثُمَّ بِالخَرِبِ فَسُوِّيَتْ، وَبِالنَّخْلِ فَقُطِعَ، فَصَفُّوا النَّخْلَ قِبْلَةَ المَسْجِدِ وَجَعَلُوا عِضَادَتَيْهِ الحِجَارَةَ). متفق عليه.

وتنافسوا في بذل وسعهم؛ بل وما فوق طاقتهم؛ كما في الحديث عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ -رضي الله عنه-؛ أنه كان يحدث عن النبيِّ -صلى الله عليه وسلم- حَتَّى أَتَى عَلَى ذِكْرِ بِنَاءِ الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: كُنَّا نَحْمِلُ لَبِنَةً لَبِنَةً، وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ يَحْمِلُ لَبِنَتَيْنِ لَبِنَتَيْنِ، قَالَ: فَرَآهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجَعَلَ يَنْفُضُ التُّرَابَ عَنْهُ، وَيَقُولُ: "يَا عَمَّارُ! أَلَا تَحْمِلُ لَبِنَةً كَمَا يَحْمِلُ أَصْحَابُكَ؟!" قَالَ: إِنِّي أُرِيدُ الْأَجْرَ مِنَ اللَّهِ -سبحانه وتعالى-. قَالَ: فَجَعَلَ يَنْفُضُ التُّرَابَ عَنْهُ، وَيَقُولُ: "وَيْحَ عَمَّارٍ تَقْتُلُهُ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ، يَدْعُوهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ، وَيَدْعُونَهُ إِلَى النَّارِ". قَالَ: فَجَعَلَ عَمَّارٌ يَقُولُ: أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنَ الْفِتَنِ. (رواه البخاري: 447، ومسلم: 2915)

🏠وقد استغرق بناء المسجد النبوي اثني عشر يوماً تقريباً، وكان بناؤه متواضعاً في أبسط صورة، فراشه الرمال، وأعمدته جذوع النخل، وسقفه جريد النخل، وطوله مما يلي القبلة إلى مؤخرته مائة ذراع، وعرضه مثل ذلك أو دونه.

⇦ وبعد الفراغ من بناء المسجد بُنيت الحجرات لأزواج النبي ﷺ حول مسجده الشريف، وسُقفت بالجريد وجذوع النخل، لتكون مساكن لرسول الله ﷺ وأهله، فكان لسودة بنت زمعة رضي الله عنها بيت، وآخر لعائشة رضي الله عنها.

✉وظل المسجد النبوي على حاله حتى كثر الناس، وضاق المسجد، وذلك بعد غزوة خيبر، فأدخل فيه رسول الله ﷺ الأرض التي اشتراها عثمان بن عفان ووسع بها المسجد ﷺ، وكان ﷺ يصلي بالناس فيه، ويخطب فيه مستنداً إلى جذع نخلة.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رَضِيَ الله عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُومُ يَوْمَ الجُمُعَةِ إِلَى شَجَرَةٍ أَوْ نَخْلَةٍ، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ، أَوْ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله، أَلاَ نَجْعَلُ لَكَ مِنْبَرًا؟ قَالَ: «إِنْ شِئْتُمْ»، فَجَعَلُوا لَهُ مِنْبَرًا، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الجُمُعَةِ دُفِعَ إِلَى المِنْبَرِ، فَصَاحَتِ النَّخْلَةُ صِيَاحَ الصَّبِيِّ، ثُمَّ نَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَضَمَّهُ إِلَيْهِ، تَئِنُّ أَنِينَ الصَّبِيِّ الَّذِي يُسَكَّنُ، قَالَ: «كَانَتْ تَبْكِي عَلَى مَا كَانَتْ تَسْمَعُ مِنَ الذِّكْرِ عِنْدَهَا» أخرجه البخاري.

📝وكان ﷺ يصلي قبل بناء مسجده حيث أدركته الصلاة، ولأهمية المسجد في الإسلام فقد بادر رسول الله ﷺ إلى البدء في بنائه فور وصوله إلى المدينة، قبل أن يبني بيتاً لنفسه، وهذا يدل على أهمية المسجد في الإسلام،

✉فهو يؤدي الوظائف التالية:

1- الوظيفة التعبدية: فهو محل إقامة الصلاة جماعة، ومحل الاعتكاف، وتلاوة القرآن الكريم، وغيرها.

2- الوظيفة التوجيهية: حيث تقوم فيه حلقات التعليم، والتدريس، والوعظ، والإفتاء، وغيرها.

3- الوظيفة الاجتماعية: حيث من خلال المسجد يتم إيواء الفقراء فيه، واستقبال الضيوف والغرباء فيه، ويتم التعارف بين أهل القرية فيه، واجتماع أهل الحي الواحد فيه، وتتحقق من خلاله الأخوة والمحبة والمواساة بين المسلمين.

🏠أما فضائل المسجد النبوي: فهو أول مسجد أسس على التقوى، والصلاة فيه بألف صلاة،

وأنه من المساجد التي يجوز شد الرحال إليها.

قال تعالى: {لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ} [التوبة/١٠٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صَلاَةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ الفِ صَلاَةٍ فِيمَا سِوَاهُ، إِلَّا المَسْجِدَ الحَرَامَ» متفق عليه.

الآذان:

أوجب الله الصلاة على المسلمين ليكونوا دائماً متذكرين عظمة العليّ الأعلى، فيتبعون أوامره، ويجتنبون نواهيه، ولذلك قال في مُحكم كتابه في سورة العنكبوت: {إِنَّ الصلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنْكَرِ} [العنكبوت: 45].

⇦وجعل أفضل الصلاة ما كان جماعة ليذاكر المسلمون بعضهم بعضاً في شؤونهم واحتياجاتهم، ويقوّوا روابط الألفة والاتحاد بينهم، ومتى حان وقت الصلاة فلا بدّ من عمل ينبه الغافل، ويذكّر الساهي حتى يكون الاجتماع عامّاً، فائتمر النبي عليه الصلاة والسلام مع الصحابة فيما يفعل لذلك، فقال بعضهم: نرفع راية إذا حان وقت الصلاة ليراها الناس، فلم يرضوا ذلك لأنها لا تفيد النائم ولا الغافل، وقال آخرون: نُشعل ناراً على مرتفع من الهضاب فلم يقبل أيضاً، وأشار آخرون ببوق وهو ما كانت اليهود تستعمله لصلواتهم فكرهه رسول الله، لأنه لم يكن يحب تقليد اليهود في عمل ما، وأشار بعضهم بالناقوس وهو ما يستعمله النصارى فكرهه الرسول أيضاً، وأشار بعضهم بالنداء فيقوم بعض الناس إذا حانت الصلاة وينادي بها فقُبِل هذا الرأي، وكان أحد المنادين عبد الله بن زيد الأنصاري، فبينما هو بين النائم واليقظان إذ عرض له شخص وقال: ألا أعلمك كلمات تقولها عند النداء بالصلاة؟ قال: بلى، فقال له: قل: الله أكبر الله أكبر مرتين، وتشهَّد مرتين، ثم قل: حيَّ على الصلاة مرتين، ثم قل: حيَّ على الفلاح مرتين، ثم كبر ربك مرتين، ثم قل لا إله إلا الله، فلما استيقظ توجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره خبر رؤياه، فقال: «إنها لرؤيا حق»، ثم قال له: «لقِّن ذلك بلالاً فإنه أندى صوتاً منك»، وبينما بلال يؤذن إذ جاء عمر يجر رداءه، فقال: والله لقد رأيت مثله يا رسول الله، وكان بلال أحد مؤذنيه بالمدينة، والآخر عبد الله ابن أُم مكتوم، وكان بلال يقول في أذان الصبح بعد حيّ على الفلاح: «الصلاة خير من النوم» مرتين، وأقرّه الرسول على ذلك، فشُرع الأذان، تلك النغمة العلوية التي تدوي في الآفاق، وتهز أرجاء الوجود، تعلن كل يوم خمس مرات بأن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتنفي كل كبرياء في الكون وكل دين في الوجود، إلا كبرياء الله، والدين الذي جاء به عبده محمد رسول الله.

⇦وكان عليه الصلاة والسلام يأمر في فجر رمضان بأذانين: أولهما يوقظ به الغافلون حتى يَنْتَبِهوا للسحور، والثاني للصلاة.

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:

كان العمل الثاني الذي قام به الرسول ﷺ بعد بنائه المسجد وعقد المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.

فعمد -صلى الله عليه وسلم- لمنهجية عجيبة لحل الأزمة الاقتصادية العصيبة، حلٌ مجتمعي إنساني، يقوده فكر عقدي إيماني فقد كانت فكرة المواساة والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.

والمقصود بالمواساة: المُشارَكَةُ في المَعاشِ عند الضيق، فوآساهُ بمالِهِ أي: جعل له من الحق في ماله كما له تمامًا، فإن كان من فَضْلِ ماله فَلَيْسَ بمُواساةٍ.

يقول ابنُ القيمِ: "المواساةُ للمؤمنِ أنواعٌ: مواساةٌ بالمال، والجاه، والبدن، والخدمة، والنصيحة والإرشاد، والدعاء والاستغفار لهم، والتوجع لهم، وعلى قدر الإيمان تكون هذه المواساة، فكلما ضعف الإيمان ضعفت المواساة وكلما قوي قويت، وكان رسول الله ﷺ أعظم الناس مواساة لأصحابه بذلك كله، فلأتباعه من المواساة بحسب اتباعهم له -صلى الله عليه وسلم-" (الفوائد: ص: 171).

فقد آخى ﷺ بين المهاجرين بعضهم مع بعض حين نزلوا المدينة، ليُذهب عنهم وحشة الغربة، ويُؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة، ويشد أزر بعضهم ببعض، ليرتفق الأدنى بالأعلى، ويستعين

الأعلى بالأدنى، لأن بعض المهاجرين أحسن حالا من بعض بالمال والعشيرة، كما آخى ﷺ بين حمزة بن عبد المطلب، وزيد بن حارثة رضي الله عنهما، لأن زيداً كان مولاهم، وآخى ﷺ بين الزبير بن العوام، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما.

وروى أهل السير أنه ﷺ قال: "تَآخَوْا فِي اللَّهِ أَخَوَيْنِ أَخَوَيْنِ"، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ: "هَذَا أَخِي"، فَكَانَ ﷺ سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ، وَإِمَامُ الْمُتَّقِينَ، وَرَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الَّذِي لَيْسَ لَهُ ندٌّ وَلَا نَظِيرٌ مِنْ الْعِبَادِ، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه أَخَوَيْنِ، وَكَانَ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَسَدُ اللَّهِ عز وجل وَأَسَدُ رَسُولِهِ ﷺ ، وَعَمُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَزَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَخَوَيْنِ، وَإِلَيْهِ أَوْصَى حَمْزَةُ يَوْمَ أُحُدٍ حَيْنَ حَضَرَهُ الْقِتَالُ إِنْ حَدَثَ بِهِ حَادِثُ الْمَوْتِ، وَجَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ذُو الْجَنَاحَيْنِ الطَّيَّارُ فِي الْجَنَّةِ وَمَعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، أَخُو بَنِي سَلِمَةَ، أَخَوَيْنِ، وكَانَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يَوْمئِذٍ غَائِبًا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ.

ثم آخى ﷺ بين المهاجرين والأنصار، فقد قدم المهاجرون إلى المدينة من بطون مختلفة، ونزلوا فيها بلا أهل ولا مال، وقدموا إلى قوم لم يسبق لهم بهم معرفة، وكان الأنصار قوماً لم تجف الدماء بينهم من الحروب، وبينهم من مظاهر الفرقة والنزاع الكثير،ولكن الله برحمته ألف بين قلوب الجميع بالإيمان،كما قال سبحانه :{وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [آل عمران/١٠٣].

وقد عقد ﷺ المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك رضي الله عنه، وكانوا تسعين رجلاً، نصفهم من المهاجرين، ونصفهم من الأنصار.

فآخى ﷺ بينهم على الحق، والمواساة، والتوارث فيما بينهم دون ذوي الرحم، فلما عز الإسلام، واجتمع الشمل، وذهبت الوحشة، أنزل الله سبحانه: {وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الأنفال/٧٥]

فنسخ الله التوارث، وخصه بالقرابة، وأبقى الأخوة والمناصرة.

وهكذا لم يدع النبي -صلى الله عليه وسلم- أحدًا من الصحابة رضي الله عنهم وحيدًا حتى جعل له من المسلمين أخًا يشاركه الأمور كلها بأكثر من مشاركة الأخ الشقيق. (سيرة ابن هشام).

وبهذا اللون من المؤاخاة أزال النبيُّ ﷺ وحشةَ الغربةِ عن الصحابة -رضي الله عنهم- عند قدومهم المدينة.

ومن أروع صور هذه المواساة والمؤاخاة ما قَالَه عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رضي الله عنه: "لَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ آخَى رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ. فَقَالَ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ رضي الله عنه إِنِّي أَكْثَرُ الْأَنْصَارِ مَالًا، فَأَقْسِمُ لَكَ نِصْفَ مَالِي، وَانْظُرْ أَيَّ زَوْجَتَيَّ هَوِيتَ نَزَلْتُ لَكَ عَنْهَا؛ فَإِذَا حَلَّتْ تَزَوَّجْتَهَا. قَالَ: فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: لَا حَاجَةَ لِي فِي ذَلِكَ، هَلْ مِنْ سُوقٍ فِيهِ تِجَارَةٌ؟ قَالَ: سُوقُ قَيْنُقَاعٍ. قَالَ: فَغَدَا إِلَيْهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، فَأَتَى بِأَقِطٍ وَسَمْنٍ. قَالَ: ثُمَّ تَابَعَ الْغُدُوَّ [أي: واظب على نزول السوق كل صباح]، فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَلَيْهِ أَثَرُ صُفْرَةٍ [طيب معمول من الزعفران].

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: "تَزَوَّجْتَ؟" قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: "وَمَنْ؟" قَالَ: امْرَأَةً مِنْ الْأَنْصَارِ. قَالَ: "كَمْ سُقْتَ؟" قَالَ: زِنَةَ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم-: "أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ" (رواه البخاري: 2048).

⇦فلله درهم ما أروع هذا التآخي فقد بلغ مبلغًا لا يتصوره إنسان؛ فقد أراد سعد بن الربيع أن يقاسمه أزواجه؛ فلم يعد يرى المسلم أنه أولى من أخيه بشيء مما في يده؛ حتى أزواجه! فأي أخوة تلك التي غرستها حقيقة الإسلام في قلوبهم؟!

ثم المواساة الجماعية بين الأنصار والمهاجرين لم تقتصر على فرد أو اثنين؛ بل شملت المهاجرين والأنصار جميعًا كما جاء في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه-؛ قَالَ: "قَالَتْ الْأَنْصَارُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: اقْسِمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا النَّخِيلَ. فَقَالَ: لَا. فَقَالُوا: تَكْفُونَا الْمَئُونَةَ [العمل ومزاولة الفلاحة]، وَنَشْرَكُكُمْ فِي الثَّمَرَةِ. قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا" (البخاري: 2325).

⇦فالأنصار -رضي الله عنهم- هم الذين ذهبوا بأنفسهم للنبي -صلى الله عليه وسلم- يرجون منه أن يقسم نخل المدينة بينهم وبين المهاجرين بالتساوي! لم ينتظروا أن يطلب النبي ﷺ منهم الإحسان لإخوانهم المهاجرين الفقراء؛ بل أدركوا بأنفسهم حجم الحاجة عند المهاجرين، وشعروا بمسئوليتهم الخاصة تجاه إخوانهم المهجرين الفقراء.

فقد بلغت هذه المواساة والأخوة حد أنهم يتوارثون به فيما بينهم حتى نسخ الله ذلك فما بقي بينهم إلا النصر والعطاء والبر والإحسان والنصيحة، وذهب الميراث مع البقاء على جواز أن يوصي المسلم لأخيه وصية من ماله بعد موته لا تزيد على ثلث التركة.

فضائل الأنصار:

عن أنس عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «آيَةُ الإِيمَانِ حُبُّ الأَنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الأَنْصَارِ» متفق عليه.

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّكُمْ لَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ» متفق عليه.

وعن أنس بْن مَالِكٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «أُوصِيكُمْ بِالأَنْصَارِ، فَإِنَّهُمْ كَرِشِي وَعَيْبَتِي، وَقَدْ قَضَوُا الَّذِي عَلَيْهِمْ، وَبَقِيَ الَّذِي لَهُمْ، فَاقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ» متفق عليه.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ أَنَّ الأَنْصَارَ سَلَكُوا وَادِيًا، أَوْ شِعْبًا، لَسَلَكْتُ فِي وَادِي الأَنْصَارِ، وَلَوْلاَ الهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأَنْصَارِ».

أما فضائل المهاجرين:

فهم أول من آمن بالله ورسوله، وأول من هاجر في سبيل الله، وأول من أُخرج من بلده وماله ابتغاء مرضاة الله، كما قال سبحانه:{وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }[التوبة/١٠٠] ،وهم أول من نصر هذا الدين كما قال سبحانه: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}[الحشر/٨] .

هكذا بالمواساة والأخوة واجه النبيُّ ﷺ أزمته الاقتصادية الأولى بدولة المدينة الناشئة وهكذا الفرد في المجتمع المسلم الصادق عليه أن يستشعر مسئوليته الشرعية والاجتماعية تجاه مجتمعه وإخوانه من المسلمين، بمثل هذا الشعور ترتقي مجتمعات المسلمين، وتنهض أمة الإسلام من جديد، فاليقين الذي لا ريب فيه أنَّه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، ولن يرد الله -سبحانه وتعالى- لهذه الأمة المنكوبة عزها إلَّا إذا استعادت سيرة أجدادها في تمام الأخوة والمحبة، وكمال المواساة والإيثار، ولمثل هذه المعاني تُدْرَس السيرة وتُدَرّس.

فاللهم اجمع كلمة المسلمين، وألف بين قلوبهم، وأنزل المحبة والمؤاخاة بينهم، واجعل المواساة والإيثار خُلقاً لهم، اللهم اجمعنا بحبيبنا وقرة أعيننا رسولنا ومهجة قلوبنا محمد بن عبد الله، اللهم اجعلنا أقرب الناس منزلاً إليه يوم القيامة، اللهم كما نسألك ونتوسل إليك ونرجوك رؤيتك والنظر إلى وجهك الكريم يوم القيامة، فاللهم أنعم علينا بمرافقة ورؤية الحبيب محمد ﷺ في جنة الفردوس برحمتك يا أرحم الراحمين! اللَّهمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَالعمَل الَّذِي يُبَلِّغُني حُبَّكَ.

المراجع:

❶فقه السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة.

❷روضة الأنوار في سيرة النبي المختار المباركفوري.

❸الرحيق المختوم المباركفوري.

❹السيرة النبوية لابن هشام.

❺السيرة النبوية إبراهيم الدويش.